



الحمد لله، والصلوة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه، أما بعد: فإنه مما لا شك فيه أن لتحقيق أي أمر من الأمور والوصول إليه أسبابٌ يجب بذلها والقيام بها، حتى يتحقق المطلوب، ويسعد العبد بالمرغوب، فاتخاذ الأسباب أمر شرعي مطلوب وتركها مخالف للشرع والعقل، والاعتماد عليها شرك، والتوحيد الاعتماد على مسبب الأسباب ورب الأرباب مع اتخاذ الأسباب.

والنصر على الأعداء، وإعلاء كلمة التوحيد - لا إله إلا الله - فوق جميع الدعوات مطلبٌ من أعظم المطالب التي يسعى لتحقيقها كل مسلم.

هذا؛ وإن أسباب النصر كثيرة جاءت النصوص الشرعية بتجلياتها وإيضاحها، ومن أعظم الأسباب الجالبة للنصر نصرة الله - تعالى - كما قال - تعالى - : {وَلَيُنْصَرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ}، وقال - جل شأنه - : {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يُنْصُرُكُمْ وَيُبَتِّئُنَّ أَقْدَامَكُمْ}، فـ"هذا أمر منه - تعالى - للمؤمنين، أن ينصروا الله بالقيام بيديه، والدعوة إليه، وجهاد أعدائه، والقصد بذلك وجه الله، فإنهم إذا فعلوا ذلك، نصرهم الله وثبت أقدامهم، أي: يربط على قلوبهم الصبر والطمأنينة والثبات، ويصبر أجسامهم على ذلك، ويعينهم على أعدائهم، فهذا وعد من كريم صادق الوعد، أن الذي ينصره بالأقوال والأفعال سينصره مولاه، وييسر له أسباب النصر، من الثبات وغيره" [تفسير السعدي (785)].

ومن الأقوال والعبادات اللسانية والقلبية التي ينصر العبد ربه والتي جعلها الله - تعالى - سبباً من أسباب النصر لعباده الموحدين ذكر الله فقال - تعالى - : {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فَتَأْتِيَنَا وَإِذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنْازِعُوا فَتُنَزَّلُوا وَتَذَهَّبُ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ} وفي هذا تعليم الله لعباده المؤمنين آداب اللقاء وطريق الشجاعة عند مواجهة الأعداء، قال الشيخ الشنقيطي - رحمه الله - : "وفي الأمر بالإكثار من ذكر الله - تعالى - في أضيق الأوقات؛ وهو وقت التحام القتال دليل واضح على أن المسلم ينبغي له الإكثار من ذكر الله على كل حال؛ ولاسيما في وقت الضيق، والمحب الصادق في حبه لا ينسى محبوبه عند نزول الشدائدين".

قال عنترة في معلقة:

ولقد ذكرتك والرماح نواهل *** مني وب狺 الهند ت قطر من دمي

وقال الآخر:

⁹⁵ ذكرتك والخطي يختر بیننا *** وقد نهلت فینا المثقفة السمر" [أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن] (9 / 9).

ويقول ابن القيم - رحمة الله - : "فمن أحب شيئاً أكثر من ذكره بقلبه ولسانه، ولهذا أمر الله - سبحانه - عباده بذكره على جميع الأحوال، وأمرهم بذكره أخوف ما يكونون، فقال - تعالى - : {يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فتنة فاثبتوها واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون}، والمحبون يفتخرن بذكرهم أحبابهم وقت المخاوف وملاقاة الأعداء، وفي بعض الآثار الإلهية: إن عبدي كل عبدي الذي يذكرني وهو ملائق قرنه. فعلامة المحبة الصادقة ذكر المحبوب عند الرغب والرهب، وقال بعض المحبين في محبوبه:

*يذكرنيك الخير والشر والذى **أخاف وأرجو والذى أتوقع" [روضة المحبين: 264].

وللعلماء في هذا الذكر، أعني قوله - تعالى - {وَادْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}، ثلاثة أقوال:
الأول: اذكروا الله عند جزع قلوبكم، فإن ذكره يعين على الثبات في الشدائـد.

الثاني: أثبتوا بقلوبكم، واذكروه بالسنتكم، فإن القلب لا يسكن عند اللقاء ويضطرب اللسان، فأمر بالذكر حتى يثبت القلب على اليقين، ويثبت اللسان على الذكر، ويقول ما قاله أصحاب طالوت: {وَلَمَّا بَرَزُوا إِلَيْهِمْ جَاهُولُتْ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرَغْ عَلَيْنَا صَبَرْأً وَتَبَّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ} [البقرة: 250]. وهذه الحالة لا تكون إلا عن قوة المعرفة، واتقاد البصيرة، وهي الشجاعة المحمودة في الناس.

الثالث: اذكروا ما عندكم من وعد الله لكم في ابتياعه أنفسكم ومثانته لكم.

قال القرطبي - رحمه الله - : "قلت: والأظهر أنه ذكر اللسان الموقّف للجناة. قال محمد بن كعب القرظي: لو رخص لأحد في ترك الذكر لرخص لذكرها، يقول الله - عز وجل - : {أَلَا تُكَلِّمُ النَّاسَ ثَلَاثَةً أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزاً وَإِذْكُرْ رَبَّكَ} [آل عمران: 41]. ولرخص للرجل يكون في الحرب، يقول الله - عز وجل - : {إِذَا لَقِيتُمْ فِتْنَةً فَابْثُبُوا وَإِذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا}. وقال قتادة: افترض الله - جل وعز نكره - على عباده، أشغل ما يكعون عند الضراب بالسيوف. وحكم هذا الذكر أن يكون خفياً، لأن رفع الصوت في مواطن القتال رديء مكروه إذا كان الذاكر واحداً. فاما إذا كان من الجميع عند الحملة فحسن، لأنه يفت في أصحاب العدو". [الجامع لأحكام القرآن (8 / 24)].

فارفعوا يا أخوتي المجاهدين في أرضنا الحبيبة أصواتكم بالتكبير والأذان، فإن شياطين الجن يهربون من سماع الأذان وذكر الله، وإنواعهم شياطين الإنس تترعد فرائصهم وترتعب قلوبهم وتخور عزائمهم وتزلزل الأرض من تحتهم عند سماع ذكر الله، فهل شيء أكبر من الله؟ فالله أكبر من كل كبير ومن كل ملك ورئيس وأكبر من هؤلاء الذين سلطوا على رقاب الناس، والأمر صار متواتراً لدى القاصي والداني والصغير والكبير أنهم إذا ذكر الله بالتكبير اشماتت قلوبهم وولوا مدبرين، واستبدلوا إخوانى الأغانى والطبول والتصفيق بذكر الله والتضرع إليه وسؤاله ومناجاته.

ويقول ابن القيم - رحمه الله - في آخر كتابه (الفروسيّة) منبهاً على أمر مهم مستفاد من هاتين الآيتين الكريمتين في سورة الأنفال: {يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فتنة فاثبتووا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون * وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتدهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين}، ومنوهاً على أهمية الذكر في تحقيق النصر على العدو إذا اجتمع مع الأسباب الأخرى: "فأمر المجاهدين فيها بخمسة أشياء ما اجتمعت في فتنة قط إلا نصرت وإن قلت وكثُر عدوها: أحدها: الثبات.

الثاني: كثرة ذكره - سبحانه وتعالى - .

الثالث: طاعته وطاعة رسوله.

الرابع: اتفاق الكلمة وعدم التنازع الذي يوجب الفشل والوهن وهو جند يقوى به المتنازعون عدوهم عليهم فإنهم في اجتماعهم، كالحزمة من السهام لا يستطيع أحد كسرها فإذا فرقها وصار كل منهم وحده كسرها كلها.

الخامس: ملاك ذلك كله وقوامه وأساسه وهو الصبر.

فهذه خمسة أشياء تبني عليها قبة النصر ومتى زالت أو بعضها زال من النصر بحسب ما نقص منها، وإذا اجتمعت قوى بعضها بعضاً وصار لها أثر عظيم في النصر، ولما اجتمعت في الصحابة لم تقم لهم أمة من الأمم وفتحوا الدنيا ودانوا لهم العباد والبلاد، ولما تفرقت فیمین بعدهم وضعفت آل الأمر إلى ما آل. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، والله المستعان، وعليه التكالن، وهو حسبنا ونعم الوكيل".

فالله يا أخوتی بتحقيق هذه الأسباب الخمسة مجتمعة وعدم التفريط بأحدھا فكلها غایة في الأهمية، "أنت أخي المسلم إذا استقرأت الدول الإسلامية وجدت السبب الأعظم في زوال ملکھا ترك الدين والتفرق الذي أطمع فيهم الأعداء وجعل بأسمهم بینهم" [تفسير السعدي].

وبينه الشیخ رشید رضا - رحمه الله - على مفعول الذکر وأثره في نصر المسلمين فيقول عند تفسیره لآیتي الأنفال:

"{وَإذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا} أَيْ: وَأَكْثُرُوا مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ فِي أَنْتَأِ الْقِتَالِ وَتَضَاعِيفِهِ، إِذْكُرُوهُ فِي قُلُوبِكُمْ بِذِكْرٍ قُدْرَتِهِ، وَوَعْدِهِ بِنَصْرٍ رُسُلِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ، وَتَصْرُّ كُلِّ مَنْ يَتَبَعُ سُنْنَهُمْ بِنَصْرِ دِيْنِهِ، وَإِقَامَةِ سُنْنِهِ، وَبِذِكْرِ نَهْيِهِ لَكُمْ عَنِ الْيَأسِ مَهْمَا اشْتَدَ الْبَأْسُ، وَبِأَنَّ النَّصْرَ بِيَدِهِ وَمِنْ عِنْدِهِ، يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ، وَهُوَ الْقَوْيُ الْعَزِيزُ، فَمَنْ ذَكَرَهَا، وَتَأَمَّلَ فِيهِ لَا تَهُولُهُ قُوَّةُ عَدُوِّهِ وَاسْتِعْدَادُهُ، لِإِيمَانِهِ بِأَنَّ اللَّهَ - تَعَالَى - أَقْوَى مِنْهُ، وَإذْكُرُوهُ أَيْضًا بِالسُّنْنَتِكُمْ مُوافِقَةً لِقُلُوبِكُمْ بِمِثْلِ التَّكْبِيرِ الَّذِي تَسْتَصِغِرُونَ بِمُلَاحَظَةِ مَعْنَاهُ كُلَّ مَا عَدَاهُ، وَالدُّعَاءِ وَالتَّضَرُّعِ إِلَيْهِ - عَزْ وَجْلَهُ - مَعَ الْيَقِينِ بِأَنَّ لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ.

{أَعْلَكُمْ تُفْلِحُونَ} هَذَا الرَّجَاءُ مَنْوَطٌ بِالْأَمْرِيْنِ كِلِيْمَاهَا، أَيْ: إِنَّ الثَّيَاتَ وَذِكْرَ اللَّهِ - تَعَالَى - هُمَا السَّبَبَانِ الْمُعْنَوَيَيْنِ لِلْفَلَاحِ وَالْفُوزِ فِي الْقِتَالِ فِي الدُّنْيَا، ثُمَّ فِي نَيْلِ الْتَّوَابِ فِي الْآخِرَةِ، أَمَّا الْأَوَّلُ فَظَاهِرٌ، وَقَدْ بَيَّنَا مِثَالَهُ مِنَ الْوَقَائِعِ الْبَشَرِيَّةِ. وَأَمَّا الثَّانِي فَأَمْثَالُهُ أَظْهَرُ وَأَكْتُرُ، وَمِنْ أَظْهَرِهَا مَا نَزَّلْتُ هَذِهِ الْآيَةُ فِي سِيَاقِهِ، وَهَذِهِ السُّورَةُ بِجُمْلَتَهَا فِي بَيَانِ حُكْمِهِ وَأَحْكَامِهِ وَسُنْنِ اللَّهِ فِيهِ وَهُوَ غَزْوَةُ بَدْرِ الْكُبْرَى..... وَتَبَّأَتْ أَنَّهُ كَانَ مِنْ أَسْبَابِ اِنْتِصَارِ الْجَيْشِ الْبُلْغَارِيِّ عَلَى الْجَيْشِ الْتُّرْكِيِّ فِي حَرْبِ الْبَلْقَانِ الْمُشْهُورَةِ، مَا كَانَ مِنْ إِبْطَالِ الْقُوَّادِ وَالضَّبَاطِ مِنَ التَّرْكِ لِلَّادَانِ وَالصَّلَّاءِ مِنَ الْجَيْشِ، وَالدُّعَائِيَّةُ الَّتِي يَتَوَهَا فِيهِ مِنْ وُجُوبِ الْحَرْبِ لِلْوَطَنِ، وَبِاِسْمِ الْوَطَنِ، وَلِشَرْفِ الْوَطَنِ، فَلَمَّا عَلَمُوا بِهَا أَعَادُوا الْمُؤْدِنِيْنَ وَالْأَئِمَّةَ بِعَمَائِمِهِمْ إِلَى كُلِّ تَابِعِهِ، وَأَقامُوا الصَّلَاةَ فِيهِمْ. وَقَدْ رَوَتِ الْجَرَائِيدُ أَنَّ الْعَسَاكِرَ لَمَّا سَمِعُتِ الْأَذَانَ صَارَتْ تَبَكِي بُكَاءً بِنَشِيجٍ عَالٍ كَانَ لَهُ تَأْثِيرٌ عَظِيمٌ، وَكَانَ تَأْثِيرُ ذَلِكَ بِعَوْدِ الْكَرَّةِ لَهُمْ عَلَى الْبُلْغَارِ ظَاهِرًا، وَقَدْ نَكَرْنَا هَذِينِ الشَّاهِدِيْنِ فِي الْمَنَارِ كُلَّ وَاحِدٍ فِي وَقْتِهِ، وَسَوْفَ يَرَى الْتُّرْكُ سُوءَ عَاقِبَةِ كُفْرِ حُكُومَتِهِمْ، وَمُحاوِلَتِهَا إِفْسَادِ دِيْنِ شَعْبِهَا عَلَيْهِ" [تفسير المنار (10/20)].

والصحابة - رضوان الله عنهم وأرضاهم - ببركة اتباعهم لأمر الله ورسوله - صلی الله عليه وسلم - وثباتهم على ذلك وكثرة ذكرهم لله وتضرعهم إليه واعتمادهم عليه وحده دون سواه من الأكاسرة وهيئة الأمم الفارسية والرومية، مع اتحادهم وعدم تفرقهم وصبرهم وعدم يأسهم كل هذا ويفضل الله أولاً وآخرأ فتحوا المالك قلباً وقالباً وقضوا على أعظم إمبراطورية في زمانهم وفتحوا المشرق والمغرب في مدة يسيرة جداً حتى علت كلمة التوحيد على كل الأديان، فإن حذونا حذونا وسرنا سيرهم - فبإذن الله - النصر قادم وقريب.

و قبل الصحابة - رضوان الله عليهم - رسول الله - صلی الله عليه وسلم - حيث في غزوة بدر لمح بذكر الله وتضرع إليه واستغاث به فكتب الله له النصر المبين ودحر أعداء الكافرين.

ومن الأدلة على أثر ذكر الله في تحقيق النصر على الأعداء وهزيمتهم، وفتح المدن الكبيرة به ما أخبر النبي - صلى الله عليه وسلم - أن القسطنطينية في آخر الزمان ستفتح بالتكبير والتسبيح، فجاء في بعض الآثار أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال لعلي بن أبي طالب: ((ستقاتلونبني الأصفر في عصابة من المسلمين لا تأخذهم في الله لومة لائم حتى تستفتحون القسطنطينية بالتكبير والتسبيح)) [المعجم الكبير للطبراني 17 / 21)، وفي رواية عند الحاكم في المستدرك (4 / 555): ((فيجيرون إلى المدينة حتى ينزلوا بها فيهدم الله جدرانهم بالتكبير ثم يدخلونها فيقسمون أموالهم بالأترسة)). وفي رواية: ((يفتحها الله عليكم بالتكبير، فيخرب ثلثا، ويحرق الله ثلثا، وتقسمون الثالث الباقى)). وفي رواية: ((يفتحون حصنها ومدائنه بالتكبير؛ يكبرون تكبيرة فيسقط جدار، ثم يكبرون تكبيرة أخرى فيسقط جدار، ثم يكبرون تكبيرة أخرى فيسقط جدار آخر، ويبقى جدارها البحري لا يسقط، ثم يستجيرون إلى رومية، فيفتحونها بالتكبير، ويتكلمون يومئذ غنائمهم كيلا بالغرائب)). رواه نعيم بن حماد [وانظر: إتحاف الجماعة بما جاء في الفتنة والملاحم وأشراط الساعة، للتويجري 1 / 394].

ومن فوائد ذكر الله أنه تطمئن القلوب به وتسكن وتثبت وتهدا، فالقلوب عند لقاء العدو تكون مضطربة خائفة، فإذا لزمت الذكر اطمأنت وسكنت وأصبحت قوية ثابتة صامدة في وجه العدو حتى تكسره كما قال - تعالى - : {الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُ الْقُلُوبُ} [الرعد: 28]، وجاء النصر والفوز بعد الاطمئنان بذكر الله، كما قال - تعالى - : {وَإِذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [الجمعة: 10]، فرتبت الفلاح على الذكر، وهذه فائدة عظيمة يجنيها الذاكر حيث يكتب له الفوز والفالح في الدنيا والآخرة والنصر على الأعداء؛ إذ هو سبب من أسباب النصر.

ومما يدل على تأثير الذكر في نفوس المجاهدين وتبنيهم وشحذ هممهم وتقوية عزائمهم، بالإضافة إلى تفتیت عضد عدوهم وزعزعة صفة وبث الرعب في نفوس جنوده ما حكاه ربنا - جل وعلا - عن موسى وهارون - عليهما السلام -، إذ قال مخاطباً لموسى - عليه السلام - : {ازهب أنت وأخوك ولا تَنِيَا فِي ذِكْرِي}، قال ابن كثير - رحمة الله - في تفسيره هذه الآية الكريمة: "والمراد أنهم لا يفتران في ذكر الله في حال مواجهة فرعون، ليكون ذكر الله عوناً لهم عليه، وقوة لهم، وسلطاناً كاسراً له، كما جاء في الحديث: ((إن عبدي كل عبدي الذي يذكرني وهو مُناجز قرْنِه)) [تفسير ابن كثير 9: 339].

● ومن الأذكار التي تعين المسلم وتقويه وتبنته قول: ((لا حول ولا قوة إلا بالله))، هذه الكلمة العظيمة المتضمنة على الاستعانة بالله والعلم بأنه لا تحول من الضعف إلى القوة ومن الذل إلى العزة ومن الهوان إلى العلو والتمكين ومن الهزيمة إلى النصر ومن الخسران إلى الفلاح والفوز ومن الضلال إلى الهدى إلا من الله وحده لا شريك له، لا أمم متحدة ولا مجلس أمن ولا غيرهم ممن هو دونهم أو فوقهم، فالأمر لله من قبل ومن بعد يعز من يشاء ويميل من يشاء، ويؤتي الملك ممن يشاء وينزعه ممن يشاء، فلا مانع لما أعطي ولا معطي لما منع، - سبحانه وتعالى - فعال لما يريد، وكل يوم هو في شأن.

ومن استuan بالله - جل جلاله -، فالله - سبحانه - يعينه على قضاء حوائجه، وجميع ما يصلحه. والاستعانة بالله من أفضل العبادات وأجلها وتُعرف منزلتها وعظم شأنها من خلال سورة الفاتحة التي أمر الله - سبحانه - عباده أن يتبعدوه بتلاوتها يومياً مراراً.

وهذه الكلمة العظيمة كنز من كنوز الجنة، ووصية رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لأحد أصحابه، فعن أبي موسى الأشعري - رضي الله عنه - قال: لما غزا رسول - صلى الله عليه وسلم - خير أو قال لما توجه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أشرف الناس على واد فرفعوا أصواتهم بالتكبير الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: ((اربعوا على أنفسكم إنكم لا تدعون أصم ولا غائباً، إنكم تدعون سمعياً قريباً وهو معكم)), وأننا خلف دابة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فسمعني وأنا أقول: لا حول ولا قوة إلا بالله، فقال لي: ((يا عبد الله ابن قيس)), قلت: لبيك يا رسول الله، قال: ((ألا أدلك على كلمة هي كنز من كنوز الجنة)), قلت: بلـ يا رسول الله فداك أبي وأمي. قال: ((لا حول ولا قوة إلا بالله))(1).

وكذلك من فضائلها أنها غراس الجنة، فقد ثبت أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ليلة أسرى به من على إبراهيم - عليه السلام - فقال: ((من معك يا جبريل؟ قال هذا محمد، فقال له إبراهيم: مُرْأْمِتَكْ فَلِيَكُثُرُوا مِنْ غِرَاسِ الْجَنَّةِ فَإِنْ تَرْبَتْهَا طَيْبَةٌ وَأَرْضُهَا وَاسْعَةٌ، قَالَ: وَمَا غِرَاسُ الْجَنَّةِ؟ قَالَ: لَا حُولَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ))⁽²⁾.

قال النووي - رحمه الله - : "قوله - صلى الله عليه وسلم - : ((لَا حُولَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ كَنْزٌ مِنْ كَنْزِ الْجَنَّةِ))، قال العلماء: سبب ذلك أنها كلمة استسلام وتتفويض إلى الله - تعالى - واعتراف بالإذعان له وأنه لا صانع غيره ولا راد لأمره، وأن العبد لا يملك شيئاً من الأمر، ومعنى الكنز هنا أنه ثواب مدخل في الجنة، وهو ثواب نفيس كما أن الكنز أنفس أموالكم.

قال أهل اللغة: **الحول** الحركة والجilla أي لا حركة ولا استطاعة ولا حيلة إلا بمشيئة الله - تعالى - .

وقيل: معناه لا حول في دفع شر ولا قوة في تحصيل خير إلا بالله.

وقيل: لا حول عن معصية الله إلا بعصمتها، ولا قوة على طاعته إلا بمعونته، وحُكُمي هذا عن ابن مسعود - رضي الله عنه - وكله متفاوت⁽³⁾.

وشيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - يؤكد أن معناها أوسع وأعم مما ذكر، فيقول في تعليقه على حديث أبي موسى الأشعري - رضي الله عنه - **السابق**: "لفظ **الحول** يتناول كل تحول من حال إلى حال، والقوة هي القدرة على ذلك التحول، فدللت هذه الكلمة العظيمة على أنه ليس للعالم العلوي والسفلي حرفة وتحول من حال إلى حال ولا قدرة على ذلك إلا بالله، ومن الناس من يفسر ذلك بمعنى خاص فيقول: لا حول من معصيته إلا بعصمتها، ولا قوة على طاعته إلا بمعونته، والصواب الذي عليه الجمهور هو التفسير الأول، وهو الذي يدل عليه اللفظ، فإن **الحول** لا يختص بالحول عن المعصية، وكذلك القوة لا تختص بالقوة على الطاعة، بل لفظ **الحول** يعم كل تحول... وكذلك لفظ **القوّة**، "[مجموع الفتاوى 5/ 575]، وانظر بغية المرتاد (1/ 263)، وشرح العمدة لشيخ الإسلام أيضاً [4/ 123].

وقال ابن القيم - رحمه الله - : "فإنه لا حول ولا قوة إلا بالله فهو الذي بيده **الحول** كله والقوة كلها، فالحول والقوة التي يرجى لأجلهما المخلوق ويختلف إنما هما لله وبيده في الحقيقة فكيف يخاف ويرجي من لا حول له ولا قوة، بل خوف المخلوق ورجاؤه أحد أسباب الحرمان ونزول المكرور بمن يرجوه ويختلفه" [الفوائد ص 52].

وقال في موضع آخر مبيناً تأثير هذه الكلمة (**الحوقة**) في دفع داء **الهم** **والغم** **والحزن**: "وأما تأثير لا حول ولا قوة إلا بالله في دفع هذا الداء - أي داء **الهم** **والغم** **والحزن** - فلما فيها من كمال التفويض والتبرؤ من **الحول** **والقوة** إلا به وتسليم الأمر كله له وعدم منازعته في شيء منه، وعموم ذلك لكل حال إلى حال في العالم العلوي والسفلي **والقوة** على ذلك التحول، وأن ذلك كله بالله وحده فلا يقوم لهذه الكلمة شيء، وفي بعض الآثار أنه ما ينزل ملك من السماء ولا يصعد إليها إلا بلا حول ولا قوة إلا بالله، ولها تأثير عجيب في طرد الشيطان، والله المستعان" [زاد المعاد 4/ 204].

ومن الأذكار التي تقال عند لقاء العدو قول: حسبنا الله ونعم الوكيل، "أي: كافينا كل ما أهمنا، {ونعم الوكيل} المفوض إليه تدبير عباده، والقائم بمصالحهم" [تفسير السعدي].

وهذه الكلمة العظيمة المتضمنة للتوكل على الله وتتفويض الأمر إليه قالها إبراهيم - عليه السلام - لما ألقى في النار، وقال **رسول الله - صلى الله عليه وسلم -** وصحابته الكرام لما قال لهم الناس: إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوه، فأنزل الله - تعالى - : {وَلَا تَحْسِبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينٌ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحُقُوْهُمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خُوفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزُنُونَ * يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَلَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيقُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ * الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقُرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ * الَّذِينَ قَاتَلُوا لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشُوهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَاتَلُوا حَسْبًا اللَّهَ وَتَعْمَلُ الْوَكِيلُ * فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلِ لَمْ يَمْسِسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ * إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أُولَيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونَ

إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} [آل عمران: 169 – 176]

وأنذركم بما كان ي قوله - صلى الله عليه وسلم - عند لقاء عدوه، ففي الحديث الصحيح عن أنس - رضي الله عنه - قال: كان إذا غزا - صلى الله عليه وسلم - قال: ((اللهم أنت عضدي وأنت نصيري، بك أحول وبك أصول وبك أقاتل)) (رواه أحمد وأبو داود).

وهذا من تمام توكله - صلى الله عليه وسلم - على ربه واستعانته به وعدم اعتماده على الكثرة والعدة، وإنما هي أسباب والناصر والمعين هو الله وحده لا شريك له.

أحبتي الكرام:

وذكر الله عبادة جليلة لها من الفوائد أكثر مما ذكر، فقد أوصلها ابن القيم في كتابه "الوابل الصيب" إلى أكثر من سبعين فائدة، وفوائد الذكر شاملة للدين والدنيا والآخرة، وقد أمر الله بهذه العبادة، وحثّ على الإكثار منها، بل لم يأمر بالإكثار من شيء مثل ما أمر بها، قال - تعالى - : {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا} [الأحزاب: 41]. [42]

- في المداومة على الذكر امثال لأمر الله - سبحانه - ومدعاة لمحبته ومعرفته، وعون للعبد على فعل الخيرات، وكف اللسان عن الكلام القبيح والمنكرات.

والذِّكْرُ أَصْلُ الْإِيمَانِ، وَأَفْضَلُ الْأَعْمَالِ وَأَكْبَرُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ...؛ قال - تعالى - : {وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ} [العنكبوت: 45].

والذكر منزلة رفيعة، ودرجة سامية، وأهمية عظيمة، وهو أفضل من الصدقة بالمال والجهاد في سبيل الله، كما قال - صلى الله عليه وسلم - : ((ألا أكبكم بخير أعمالكم، وأزكها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إتفاق الذهب والورق، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أنفاسهم ويضرروا أنفاسكم؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: ذكر الله))(4).

ولما كان للذكر تلك المنزلة العالية والقدر العظيم؛ إذ هو متعلق بأعظم مذكور، وأجل مقصود هو الله - تعالى - ، شرع الله - تعالى - على لسان نبيه - صلى الله عليه وسلم - من الأذكار ما يجعل المسلم مرتبًا بربه ليلاً ونهاراً، وعلى مدار الأzman والأعمار في يومه وليلته، وقيامه ويقظته، وأكله وشربه، وزهابه وأوبه، وغير ذلك مما يجعله يوثق الصلة بربه، فلا يغفل عن ذكره أبداً، فتضعف الشهوات، وتسمو النفس، وتزكي بالقربات والطاعات لتتال بذلك ثواب الله ورضاه في الدنيا والآخرة. وما لا يخفى أن العبادات كلها شرعت لإقامة ذكر الله - تعالى - ، فالصلوة والزكاة والصيام والحج وغيرها ذكر لله - تعالى - .

ولهذا سأله موسى - عليه السلام - ربه أن يجعل أخاه هارون نبياً، ووزيراً له لفائدة وغرض مهم ألا وهو إقامة ذكر الله - تعالى ، قال - تعالى - عن موسى - عليه السلام - : {وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي * كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا * وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا * إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا} [طه: 29 – 35]. فعلَ كليمُ الله - تعالى - أن مدار العبادات كلها والدين على ذكر الله - تعالى - .

والذكر فوائد كثيرة، ونتائج لا يعبر عنها لسان، ولا يحيط بها إنسان. وأعظم هذه الفوائد التي يجنيها الذاكر هي: ذكر الله له، تعالى - يذكر من ذكره كما قال: {فَإِذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ} [البقرة: 152].

والذِّكْرُ حُسْنٌ حُسْنٌ من عدو الإنسان الأول: الشيطان الرجيم وجنوبيه، وهو نجاة وسلامة من النفاق، فالمنافقون لا يذكرون الله إلا قليلاً.

وهو شجرة تثمر معرفة الله ومحبته، وكلما عظمت تلك الشجرة ورسخ أصلها: كان أعظم لثمرتها، فهي تثمر أصل الأصول، وأعظم مأمول توحيد رب العالمين، الذي هو قاعدة يبني عليها كل شيء، كما يبني الحاطط على أسه، فيكون أصلها ثابتًا، وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين من أطاييف الثمر.

ومما يقطفه الذاكر من شجرة الذِّكر تمجيده لربه -تعالى-، وتقديسه ورقابته وخشيته والإناية إليه، والتوكيل عليه، والاستعانة به، والتلوس إليه بأسمائه وصفاته، وبهذا يعلم الغرض والسبب الذي شرع من أجله تكرار الذِّكر الواحد وهو ترسیخ العقيدة في نفوس العباد.

كما يجني الذاكر ثمرة أخرى وهي الرضا بقضاء الله وقدره، والتسليم والاطمئنان واليقين، فإذا ما نزل بالمرء مصيبة أو هُمْ أو حزن ذكر الله -تعالى- قائلًا: ((ماض في حكمك عدل في قضاؤك)). ((لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت))، ويذكر أن لله ما أخذ، وله ما أعطى، وكل شيء عنده بمقدار. فلا يجزع ولا يسخط، بل يرضى ويسلم.

ولو مضيت في تعداد ثمار شجرة الذِّكر لطال بنا المقال، وأكتفي بما ذكرت وأترك التوسيع في الكلام على ذلك في مظانه في الكتب التي توسيع في ذلك [انظر الوابل الصيب لابن القيم ، والباحث العقدي المتعلقة بالأذكار د/علي الكيلاني ج 1]، فكل هذا يدعو المسلم إلى البدار، والمسارعة في معرفة الأذكار الشرعية، والاعتناء في فهمها ومدلولاتها وكيفيتها، والتأثير بما فيها من عقائد ومعانٍ وفوائد.

وليعلم المسلم أن شجرة الذِّكر لا تؤتي أكلها إلا إن ارتوت بماء معين زلال لا كدر فيه ولا خبث، وذلك الماء يأتي من ينبوع الكتاب والسنة، فإذا تصلع الذاكر من معين هذا الينبوع الصافي سمت نفسه وزكت، وحصل مطلوبه ومناه، وجنا جناه، وذاق حلاوة الذِّكر، وانشرح صدره وذهب غمه وحزنه، وثقل في الميزان عمله، وبذلك يذكر الذاكر ربه بذكر مباركٍ فيه صفاء التوحيد، وبركة الإتباع، ونقاوة اللغة، وظهور معانيها في مفرداتها وتراتيبها.

وليترك المسلم ما ابتدع من أذكار فإن مشاربها مكدرة ومنجسة ولا تغنى ولا تنفع العبد بل تزيده بعداً عن ربه.

● ومن الأمور التي هي مصدر القوة التي أمرنا الله بإعدادها في قوله: {وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْحَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوفَ إِلَيْكُمْ وَلَنْ تُنْهَمُ لَا تُظْلَمُونَ} [الأنفال: 60]؛ الاستغفار والتوبة والإناية، قال - تعالى - : {وَإِنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمْتَغِكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمٍّ وَيُؤْتَ كُلُّ ذِي فَضْلٍ فَضْلُهُ وَإِنْ تَوَلُوا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ} [هود: 3]، وقال - تعالى - : {وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمَ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ * يَا قَوْمَ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ * وَيَا قَوْمَ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدُكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَنَوُّلُوا مُجْرِمِينَ} [هود: 50 - 52]. فقوم هود كانوا من أقوى الناس في زمانهم كما قال - تعالى - : {فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُ مِنَّا قُوَّةً أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحُدُونَ} [فصلت: 15]، وقال - تعالى - عنهم: {أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبُثُونَ * وَتَتَخَذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ * وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَارِينَ} [الشعراء: 123 - 130]، ومع ذلك كله أمرهم رسولهم بالاستغفار ليزدادوا قوة إلى قوتهم.

وقال - تعالى - مبيناً فوائد الاستغفار وثمراته في قصة نبي الله نوح - عليه السلام - مع قومه: {فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَارًا * يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا * وَيُمْدِنُكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَيْنَ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلُ لَكُمْ أَنْهَارًا} [نوح: 10، 12]، فلنرجع لربنا ونستغفر من ذنبينا، فما نزل بلاء إلا بذنب ولا رفع إلا بتوبة، قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : ((من لزم الاستغفار جعل الله له من كل ضيق مخرجاً، ومن كل هم فرجاً، ورزقه من حيث لا يحتسب)) (أبو داود، وابن ماجه، والببهدى عن ابن عباس - رضي الله عنهما -).

ولنضرع إلى الله ولنحبر لينصرنا على عدونا؛ {فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بِأَسْنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * فَلَمَّا نَسُوا مَا ذَكَرُوا بِهِ فَتَحَنَّا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخْذَنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِنَّا هُمْ مُبْلِسُونَ} [الأنعام: 43 و44].

وأخيراً:

نداء للعجائز والشيوخ الكبار الذين قد كبروا وضعفوا ولا يستطيعون الحمل في سبيل الله أبشركم بما جاء في حديث أم هانئ بنت أبي طالب - رضي الله عنها - حيث قالت: "مرّ بي ذات يوم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقلت: يا رسول الله إني قد كبرت وضعفت، أو كما قالت، فمرني بعمل أعماله وأنا جالسة قال: ((سبّحِي الله مائة تسبيحة فإنها تعدل لك مائة رقبة تعتقينها من ولد إسماعيل، واحمدي الله مائة تحميدة تعدل لك مائة فرس مسروقة ملجمة تحملين عليها في سبيل الله، وكبّري الله مائة تكبيرة فإنها تعدل لك مائة بدنة مقلدة مقبلة، وهلاّي الله مائة تهليلة تملأ ما بين السماء والأرض ولا يرفع يومئذ لأحد عمل إلا أن يأتي بمثل ما أتيت به))⁽⁵⁾.

وأبشر إخواني بأن هذه الأمة أمة منصورة من ربها، موعودة بالتمكين والاستخلاف في الأرض بوعد الحق الذي لا يخلف، في آيات كثيرة من القرآن، كما قال الله - تعالى - : {وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ} (الروم: 47). وقال: {وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ * وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ} (الصافات: 171-173). وقال: {إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ} (غافر: 51). وقال: {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيُسْتَخْلَفُوهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا} (النور: 55).

إن هذه النصوص المبشرة يجب أن نؤمن بها إيماناً تاماً لا تخالطه الشكوك ولا تساوره الظنون مهما طال ليل المحن؛ فإن وعد الله آتٍ عما قريب؛ {أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ} (البقرة: 214)، وما على المسلمين سوى بذل الأساليب الجالية للنصر والتوكّل على الله مولاهم وناصرهم وحده لا شريك له. ومع بذل المسلم لهذه الأساليب يجب أن يتعلق قلبه بالله - تعالى -؛ فالأمور بيده يصرّفها كيف يشاء؛ {وَمَا جَعَلَ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} (الأنفال: 10)، {إِنَّ يَنْصُرُكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنَّ يَخْذُلُكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلَيَتَوَكَّلُ الْمُؤْمِنُونَ} (آل عمران: 160). فلعل من الحكمة أن يذكر الله عند لقاء العدو حتى يتعلق قلبه بالله وحده ولا يعتمد على غيره ولا على الأساليب.

وفي الخاتمة:

أسأل الله - سبحانه وتعالى - أن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته، وأن يعلى كلمة الحق والدين وأن يجعل النصر والتمكين لإخواننا المستضعفين في مشارق الأرض ومغاربها، إنه سميع عليم، وأن يفرج همومنا ويزيل كربتنا ويدحر عدونا ويجعله في الأذلين..

هذا والله أعلم، وصلى وسلم وببارك على نبينا محمد وآلـه وأصحابـه أجمعـين.

(1) أخرجه البخاري: في صحيحه كتاب المغازي، باب غزوة خيبر (4/ 1541) ح 3968، وفي كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى - : {وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعاً بَصِيرَاً}. (6/ 2690) ح 6952، ومسلم في صحيحه باب استحباب خفض الصوت بالذكر ح 2704 / 4 (2076).

(2) أخرجه أحمد في المسند (5/ 418)، وابن حبان في صحيحه (3/ 103) ح 821، والطبراني في المعجم الكبير (4/ 3898)، وقال الألباني: "صحيح لغيره". كما في صحيح الترغيب (2/ برقم 1583).

(3) شرح صحيح مسلم للنووي (17/ 26-27)، وانظر (4/ 87) منه، وتهذيب الأسماء واللغات للنووي أيضاً.

(4) أخرجه الإمام أحمد في المسند (6/ 447)، والترمذمي في سننه: كتاب الدعوات، باب ما جاء في فضل الذكر (5/ 459) ح 3377، والحاكم في المستدرك (1/ 673)، وصحح إسناده، وحسن إسناده المنذري في الترغيب والترهيب (2/ 254). والهيثمي في مجمع الزوائد (10/ 73)، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (2629).

(5) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (6/344)، والنسائي في عمل اليوم والليلة برقم 844، والحاكم في المستدرك (1/513) وقال: "صحيح الإسناد"، وقال المنذري في الترغيب والترهيب (2/277): "أخرجه أحمد بإسناد حسن"، وقال الهيثمي في المجمع (10/92) بعد أن ذكر من أخرجه: "وأسانيدهم حسنة"، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (3/303).

المصادر: